د: محمد السيد احمد الدسوقي ★

أسباب خوف الغرب من الاسلام

في تصور المستشرق الفرنسي «جاك بيرك»

جاك بيرك هو أحدأبرز المستشرقين الفرنسيين والغربيين الذين لاتذكر أسماؤهم إلامسبوقة بكل مظاهر الحفاوة والاحترام سواء من جانب الاكاديميين أوالعرب المصنفين على حد سواء ، والرجل أفنى من عمره أكثر من نصف قرن باحثاومنقبا في تاريخ الفكر العربي قديمة وحديثة ووضع لنا قائمة من المؤلفات التي تعتبر بحق حجرالزاوية لكل دارس يريد أن يلج - باطمئنان - بحرالثقافة العربية ، ووضع جاك بيرك الكثير من المؤ لفات منها «العرب من الأ مس الى الغد» والغرب و «الشرق ثانيا» و «الإسلام أمام التحدي» و «المغرب بين حربين» و مصر و «الإ مبر يالية والثورة» و «المغرب التاريخ و المجتمع» و «من الفترات الى الأ طلسي» ومن أشهرمؤلفاته وأحدثهامؤلفه «إعادة قراءة القرآن»

هكذا قدم الدكتور سعيد السلاوندي وجاك بيرك ، في حواره الذي نشرته الأ هرام القاهرية في الصفحة الخامسة بتاريخ ١٩٩٣/٤/٢٢م. وكان الحوارحول التطرف والأصولية والإسلام.

و في هذا الحوار ذكر الدكتور سعيد السلاوندي أسباب خوف الغرب من الإسلام في تصور جاك بيرك بقوله «ثم يلخص جاك بيرك شروحاته فيقول: خوف الغرب من الإسلام يأتي من جوانب ثلاثة :

الأ ول : أن العرب والمسلمين هم الأ كثر قربا من الجوارالجغرافي.

الثاني : أنهم الأ كثر شبهامن حيث الثقافة.

الثالث : أنهم أ كثرعداوة بسبب ذكريات الماضي الاستعماري . ولم يفند الرجل

هذه الأسباب و يوضحها و انتقل بعد ذلك الحوار إلى بقية الحديث و أحسب أننا يجب ان نناقش مستشرقا كبيرا مثل جاك بيرك فيما ذهب إليه ، فهل حقا سبب معاداة الغرب للإسلام تتمثل أسبابهافي الأسباب الثلاثة السالفة الذكر ؟

اذن فلنناقش هذه الأسباب كلا على حدة :

١. خوف الغرب من الإسلام سببه أن العرب والمسلمين هم الأ كثرقربا من حيث الجوارالجغرافي . والحقيقة أن هذا الادعاء ليس له نصيب من الصحة ،فالمسألة لا علاقة لها بالقرب أو البعد الجغرافي و جاك بيرك يعلم والغرب كله يعلم أن العالم أصبح بفعل التكنولوجيا المتطورة قرية صغيرة جدا والأقمار الصناعية والقوى الخارقة لم تعد تحفل بالظواهر الجغرافية في عداوتها وفي حروبها ، ولذا فالادعاء بأن الغرب يخاف من الإسلام سببه الجوار الجغرافي ليس صحيحا وإلا لماذا لاتخاف الأجناس الأخري في قارة آسيا والامريكتين و في اروبا وهم متقاربون جغرافيا و هم ليسوا على ديانة واحدة بل ديانات متعددة، بل إن هذه الأمم تحاول أن تستغل الجوار الجغرافي في اتحادها وتكاملها.

«جاك بيرك» يعلم الإجابة عن هذا السؤال التالي : هل عاشت الدول غير المسلمة في جوار غير طبيعي مع الإسلام في القرون الأولى، هو يعلم أن الإسلام اقام علاقات طيبة مع جيرانه وعرف بسماحته واحترامه لعلاقات الجوار، وهو- أي جاك بيرك - يعلم أن التاريخ لم يشهد ان المسلمين اغاروا مرة واحدة على جيرانهم والرسول صلى الله عليه وسلم يضرب المثل الأعلى في ذلك فحافظ على جيرة جهينة و «بني ضمار» و «عقار» و عقد صلحا بين الأوس والخزرج ومع اليهود على أساس حسن الجوار [١].

وتجاور المسلمون الأوائل مع أهل النوبة المحتفظين باستقلالهم قرونا دونما أية تحطيم للجيرة، كذا أهل أرومينية كتب لهم معاوية عهد أقرفيه احترام جيرتهم [٢].

وتربي المسلمون على هذه المباديء وحافظوا عليها، وعلى ذلك فادعاء «جاك بيرك» السابق أوقن أنه يعلم أنه سبب لا تقره تكنو لوجيا العصر المتقدمة التي لا تحتفل بالقرب أو البعد الجغرافي في علاقات الأمم ولا الأديان و دعوت ننا قش السبب الثالث قبل الثاني الذي يخيف الغرب من الإسلام وهو أن المسلمين أ كثر عداوة بسبب ذكريات الماضي الاستعماري.

بداية نعترض على «جاك بيرك» بل ونرفض تعبيره «الأ كثرعداوة» و إلصاقة بالمسلمين «جاك بيرك» يعلم أن السما حة والعفو والمحبة ركائز واضحة وأساسية في طبيعة الدين الإسلامي، و لم يسجل التاريخ على المسلمين العداوة مع غيرهم، إلامن أقلام جفت ضمائر ها ومن عقول أحاطها الحقد والحمق.

إن المسلمين تربوا على العفو والسماحة، فليس الانتقام من خلقهم وشيمتهم يا سيد «جاك بيرك» وانت من العالمين من الغرب أن الإسلام علم أنصاره أن يتجلوا بالصبر والحلم والعفو فإن ذلك من ركائز خصال المسلمين، وقد مدح الله الحليم في كتابه حيث يقول: **(ولمن صبر و غفر)** الشورى/٤٣ يعني من صبر على الظلم و تجاوز عن ظالمه و عفا عنه **(فان ذلك لمن عزم الأمور)** الشورى/٤٣ يعني من حقائق الأمور التي يشاب فاعلها، ويقول سبحانه أيضا **(وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فاجره على الله إن الله لا يحب الظالمين)** الشورى/٤٠

فاطمئن ياسيد «جان» إن الانتقام والظلم هماشيم الغرب، إن الحقد وعدم العفو شيم الغرب و ليست شيم الإسلام، فلاتخف من المسلمين من ظلم استعماري وقع عليهم لأن شيم الكبار العفو والسماحة، وقع عليهم لأن شيم الكبار العفو والسماحة، و مع ذلك ياسيد «جاك»أنت تعلم والغرب يعلم أنه يسعى بكل الجهود لأن يتناسى المسلمون دينهم و يبتعدوا عنه، بل ينفق الغرب بلايين الدولارات في هذا الشأن، فني جمهورية ألبانيا المسلمة على سبيل المثال

تحاول الجمعيات التبشيرية الغربية وسط أجواء اقتصادية سيئة ان تشتري كل طفل يجري تنصيره بحوالي ١٠٠ دولار للطفل الواحد[٣] وصدق الحق سبحانه و تعالى حين قرر ذلك في قوله: (**ودكثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند انفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير**) البقرة/١٠٩

أيهاالسيد «جاك بيرك» قل للغب إن المسلمين بدينهم الإسلامي لن يستذكروا أيام الاستعمار الغربي الغاشم لأن الإسلام ربي أهله على التعايش السلمي، والتاريخ يشهد والغرب يشهد أيضا أن المسلمين عاش معهم أهل ديانات أخرى كاليهود والنصارى والمجوس والسلام بين واضح بينهم، واذا كانت الشعوب- كماتعلم- قد أقرت خمسة مباديء للتعايش السلمي فيما بينها في العصر الحديث تتمثل في: عدم الاعتداء، تجنب التدخل في الشئون الداخلية للدول الأخرى، الاحترام المتبادل للسيادة والاستقلال، مبدأ المساواة والنفع المتبادل، المعايشة فيمابينها في سلام.

و مع ذلك «فقدكثرالاعتراض على تلك المباديء السابقة لسلبيتها ولغموض فكرتها، و خاصة في المعايشة فيما بينها بعكس الحال بالنسبة لمباديء الإسلام في التعايش السلمي [٤].

لقد سبق الاسلام أيهاالمستشرق-جاك بيرك-مبدأ التعايش السلمي مثبتا ان الدين الأسلامي والمسلمين لم يكونوا أبدا أهل عداوة وهم يعلنون دائما مبدأ «السلام» حيث لايلجأ المسلمون الى الحرب إلا باختيار عدوهم، فهم لايبغون الا العمل على نشر الإسلام و تعاليمه بالطرق السلمية في شتىء المدن والبلاد ولقد تمثلت قواعد الإسلام في التعايش السلمي في خمس قواعد:

الاولى : السلام في العقيدة: فلقد شهد الغرب بأن الأسلام أبدا ماانتشر بالقوة و الجبر وكان دستورهم قوله تعالى : (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) البقرة/٢٥٦ وقوله تعالى : **(فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر)** الغاشية/٢١و٢٢

الثانية : السلام في الحياة الخاصة : فلقد أقام الإسلام توزنا بين رغبات الإنسان ومطالبه في الحياة، و بالطرق التي تحفظ للإنسان كيانه بوصفه إنسانا مع أخيه الإنسان لذلك جاء التوجيه الإلهي: **(آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه)** الحديد/٧

الثالثة : الصلات بين الناس : وأساس ذلك أن يتعامل الناس باختلاف أجناسهم للنهوض بالحياة الإنسانية قال تعالى : **(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)** الحجرات/١٣

و على هذا لايدعو الإسلام المسلمين فقط أن يسعوا في الأرض بل شجع غير المسلمين إلى دخول دارالسلام .

الرابعة : السلام في نظام العام : والإسلام لايخفي أنه أقام أحسن علاقات الإنسان بأخيه الإنسان، بل قررالمساواة بين جميع البشر و تأملوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم- في حجة الوداع «يا ايها الناس إن ربكم واحد و إن أباكم واحد كلكم لآ دم و آدم من تراب، أكرمكم عند الله اتقاكم ليس لعربي على عجمي و لا لعجمي على عربي و لا لأحمر على أبيض و لا لأبيض على احمر فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت اللهم فاشهد ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب» [٥].

وهذا هوالذي يفتقده الغرب، فالغرب تنخره العنصرية، و ليس أدل على ذلك ماحدث في احدى الولايات الأمريكية مؤخرا إثر اضطهاد أحدالزنوج، والذي سمى ب «بثورة الزنوج» فالتفرقة العنصرية بين الأبيض والأسوداماتزال تعمل في نفوسهم، ممايعد من عوامل الضعف المستكنة الخفية التي سوف تظهر إن عاجلا أو آجلا.

الخامسة : السلام في الحكم : فلا شك أن العدل والمساواة في الحقوق بين الناس جميعا يجعل الإسلام روحا تتقبلها نفوس البشر باختلاف أجناسهم، وهم يعلمون أنهم يفتقدون ذلك و باعتراف علمائهم أمثال (جروسيوس) الذي يعد أبا القنون الدولي في أوروبا الذي قال بوجوب عدم معاملة الشعوب غير المسيحية، و مع أنه يرى القانون الطبيعي مجيزا لعقد معاهدات مع أعداء الدين الإسلامى انه نادى بتكتل الامراء المسيحيين ضد اعداء المسيحية و يقصد بكلامه هذا المسلمين [٦].

بات إذن أن الادعاء بأن المسلمين أكثر عداوة بسبب ذكريات الماضي الاستعماري ادعاء باطل لا سند له من الصحة، لم يبق من الثلاثة عناصرالتي رأي جاك بيرك فيها السبب وراء خوف الغرب من الإسلام إلا أن المسلمين أكثرشبهامن حيث الثقافة، فان كان الغرب يخاف من المسلمين والإسلام لأجل هذا السبب فلا بد لأنهم يعلمون أن المسلمين لهم جذور في ميدان العلم والثقافة تلك التي نقلوها عن المسلمين الأوائل و بنواعليه حضارتهم، وبالتالي فمن له أسس قوية لايهدم أبدا، و بذورالتقدم والتحضر والتفوق موجودة عند المسلمين ولاشك أنهم قادمون وهذاسبب خوفهم و قلقهم، و مع ذلك دعنا نضع أيديناعلى الأسباب الحقيقية التي يخاف الغرب من ورائهامن الإسلام،تلك التي

أغفلتها ياسيد «جاك» مع أنك تعلم و ـ ذر رأس واع لأحوال المسلمين بكل دقائقها.

أولا : عالمية الإسلام

من عالمية الإسلام هم-أي الغرب -ينزعجون، يقلقون في مضاجعهم لأنهم يوقنون دائما أن الإسلام حتما سيهدم ماهم فيه، فهم يخافون على ملكهم لأن الإسلام بمناهجه المعتدلة سيسوي بينهم و بين عامة الناس، وهم يقرء ون ذلك ويحفظونه في القرآن الكريم حيث يقول جل علاه : (**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا**)الفرقان/١ وقوله أيضا: (**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**) الأنبياء/١٠٧ وقوله أيضا: (**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون**)سبا/٢٨، فهم يوقنون أن رسالته صلى الله عليه وسلم منقذة للبشرية من مهاوي الظلم والجفاء وموت الضمير، والا فما دلالة الرحمة في الآية السابقة، وجودها في سياق الآية يعني أنها مرسلة لقوم لاتعرف قلوبهم الرحمة، وبالتالي كل الشعوب التي تقر برسالة الإسلام حتما سيصلها الإسلام برحمته لأنها مطلب إنساني رفيع وبها تستقر الحياة، هذا هو سبب خوفهم من الإسلام، هم يعلمون أن القرآن ناقش أهل الكتاب في عقائدهم واثبت بطلان بعضها مما يدل على أن الدعوة بعالمية الإسلام موجهة لأهل الكتاب والناس جميعا، ويؤكده قوله تعالى في سورة المدثر(**ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب**) آية ٣١ يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية (**ليستيقن الذين أوتوا الكتاب**) أي يعلمون أن هذا الرسول

حق، فإنه نطق بمطابقة مابأيديهم من الكتب السماوية كالتوراة و الإنجيل، ومن ذلك أيضا قوله تعالى في سورة الصف : **(هوالذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره علي الدين كله ولوكره المشركون)** آية ٩ ومعلوم أن لفظ الدين للجنس يشمل جميع الأديان السابقة على الإسلام كاليهودية والنصرانية والأديان الأرضية كالبوذية والوثنية وغيرهامن سائرالأديان، وهذه الحقيقة تدعونا إلي الثانية التي تعتبرنتيجة لها ألاوهي :

سر انتشار الإسلام دون وساطة وهذا ماسنعرض له في الموضوع التالي:

الهوامش:

١. سيرة ابن هشام ١/ ٥٩١

٢. د. نجيب الأرمنازي : الشرع الدولي في الإسلام ص ٥٠ نقلا عن د. وهبة الزحيلي : أحكام العاهدات في الشريعة الإسلامية ص١٧ مقال بمجلة الشريعة والقانون العدد الرابع ١٤١٠هـ ١٩٨٩م وتصدرهاكلية الشريعة والقانون بالقاهرة.

٣. محمد جمال عرفه : الألبان هل يتجهون للعالم الإسلامي من بعد أن تجاهلتهم أوربا مقال بجريد الشعب عدد: ٧٣٨ بتاريخ ٤مايو ١٩٩٣م ص. ٨

٤. المستشار: محمد عزت الطهطاوي: الإسلام والتعايش السلمي مجلة الأزهر-السنة ٥٦ ،شعبان ١٤٠٤هـ مايو١٩٨٤م ص١٢٤٧.

٥. طالع في ذلك : د.محمدالطيب النجارمسيرة الرسول،د. علي عبدالواحدوافي :حقوق االإنسانية في الإسلام نشرإدارة الثقافة بوزارة الأوقاف المصرية د/ت.

٦. طالع د/محمد سامي جنينه : القانون الدولي العام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٨م و كتاب كفاح دين للشيخ محمد الغزالي. مطبعة لجنة التأليف سنة : ١٩٨٢.